الباب الأول

ديباجة فى التسكان

٨٠٠ – ٥٠٨ ق . م

الفصل الأول

إيطاليا

ليتصور القارئ فى خياله صورة ضياع ساكنة فى أودية الجبال ، ومروج فسيحة على منحدراتها ، وبحيرات معلقة فى وهاد التلال ، وحقول خضراء أو صفراء تمتد إلى شطئان البحار الزرقاء ، وقرى وبلدان يخيم السكون والخمول حين تسطع عليها شمس الظهيرة ، فإذا مالت نحو المغيب انتعشت وسرت فيها الحياة ، ومدن تحيط بها الأتربة والأقذار ولكن كل ما فيها جميل من أصغر الأكواخ إلى أفخم الكنائس الكبرى – لقد كانت هذه هى صورة إيطاليا منذ ألفى عام ؛ ولا تزال هى صورتها فى هذه الأيام . وقد تحدث بلنى Pliny الأكبر عن بلاده(١) فقال عنها : « ليس على ظهر الأرض أو تحت قبة السماء بلاد تماثلها فى جمالها وروعة مناظرها » ؛ وأنشد فيها فرجيل يقول : « هنا الربيع الدائم والصيف حتى فى غير أشهره ؛ هنا تلد الأنعام مرتين فى العام ، وتثمر الأشجار مرتين(٢) » . ولقد كانت أشجاره الورد فى پيستم Paestum تزهر فى السنة مرتين وكانت فى شمال البلاد سهولة خصبة كثيرة كسهولة منتوا Mantua

شكل (٢)

obeikandi.com

« يَطعم التُّم(*) من مجاريها المعشوشبة »(٣) . وتمتد فى شبه الجزيرة العظيمة سلسلة جبال الأپنين امتداد العمود الفقرى فى جسم الإنسان ، فيتقى بها شاطئ البلاد الغربى الرياح الشمالية الشرقية الباردة وتنبع منها أنهار تروى الأرض بمائها وتنحدر مسرعة لتصبه فى خلجان البحر ذات المنظر الخلاب . وتقوم جبال الألب فى الشمال لتصد عن البلاد المغيرين ، أما فى سائر أطراف البلاد فإن أمواج البحر الصاخبة تتلاطم بشطئان كثير منها وعر قائم صعب المرتقى . لقد كانت هذه البلاد فى تاريخها القديم خليقة بأن تجزى أهلها المجدين خير الجزاء وأوفاه ، وكانت ذات موقع حربى هام فى حوض البحر الأبيض المتوسط يمكنها من السيطرة على العالم القديم .

وكانت جبالها مصدر كوارثها كما كانت مصدر جمالها وروعتها ، ذلك أن الزلازل والثورات البركانية كانت من حين إلى حين تبتلع جهود الأجيال المتعددة وتطمرها فى أطباق الرماد أو تحرقها بحمم البراكين ، ولكن الموت كان فى هذه البلاد ، كما هو فى معظم بلاد العالم ، مصدراً للحياة ونعمة من أنعمها . ذلك أن الحمم المختلطة بالمواد العضوية كانت مورداً لإخصاب التربة لا ينضب له على مدى الأيام معين(٤) . لقد كانت بعض الأرضين منحدرة وعرة لا تصلح للزراعة ، وكان بعضها الآخر مناقع تنتشر منها حمى الملاريا ؛ ولكن الكثير منها قد بلغ من خصب التربة ما جعل پوليبيوس Polybius يعجب من وفرة الطعام وقلة ثمنه فى إيطاليا القديمة(٥) ، ويقول إن فى وسع الإنسان أن يدرك مقدار ما تخرجه من الغلات ونوعها حين يشاهد نشاط أهلها وقوتهم وشجاعتهم . ويظن ألفيرى Alfieri أن « الشجرة — الآدمية » تنتعش فى إيطاليا خيراً مما تنتعش فى سائر بلاد العالم(٦) . بل إن الطالب الهياب فى هذه الأيام نفسها ليعتريه بعض الوجل

(*) هكذا يسميه الدميرى وهو الذى يسميه العامة فى مصر بالأوز العراق Olor واسمه العلمى Cygnum. (المترجم) .

من هوة مشاعر ذلك الشعب المدهش الخلاب — من عضـــلاته المفتولة ، ومن سرعة حبه وغضبه ، ومن عيونه الكتومة أو البراقة الملتهبة ؛ وإن انكبرياء والحميا اللذين كانا منشأ عظمة إيطاليا ، واللذين قطعا أوصالها فى أيام ماريوس Marius وقيصر Caesar وفى عصر النهضة الأوربية ، لا يزالان يجريان حتى الآن فى الدم الإيطالى فى انتظار قضية عادلة أو حجة طلية . والرجال كلهم إلا القليل النادر منهم مكتملو الرجولة وسيموا الخلق ، والنساء كلهن تقريباً حسان ، يمتزن بالقوة والشجاعة . وهل فى العالم بلاد أنجبت من العباقرة مثل ما أنجبت الأمهات الإيطاليات طوال الثلاثين قرناً التى يشملها تاريخ تلك البلاد ؟ وهل فى العالم بلاد غير إيطاليا كانت قطب رحى التاريخ — فى نظم الحـــكم أولا ثم فى الدين ، ثم فى الفن ؟ لقد ظلت رومه مدى سبعة عشر قرناً — من كاتو الرقيب Cato Censor إلى ميكل أنجلو مركز العالم الغربى .

أما أصل الإيطاليين فيقول عنه أرسطو : « يقول أصدق الناس حكماً فى هذا البلد إنه لما أصبح إيطالس Italus ملك أثنتريا Oenotria بدّل أهل البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أثنتوريين بل تسموا إيطاليين»(٧) ؛ ولقد كانت أثنتريا هى مكان الإصبع الكبرى فى الحذاء الإيطالى ، ومعنى هذا اللفظ هو « أرض النبيذ » لكثرة ما كان فيها من الكروم . ويقول توكيديدس Thucydides إن إيطالس هذا كان ملك الصقليين الذين احتلوا أثنتريا فى طريقهم لاحتلال جزيرة صقلية وتسميتها بهذا الاسم(٨) . وكما أن الرومان قد أطلقوا على الهلينيين جميعاً اسم الأغارقة ، وهو اسم جماعة قليلة هاجرت من شمال أتيكا Attica إلى نابلى ، فكذلك توسع الإغريق فى معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر البو Po إلى أقصى طرفها الجنوبى .

وما من شك فى أن فصولا كثيرة من تاريخ إيطاليا لا تزال مطمورة فى أطباق ثراها المزدحم بالأهلين ، ويدل ما كشف فيها من آثار ثقافة العصر

الحجرى القديم على أن سهولها كانت عامرة بالسكان قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام على أقل تقدير . ثم ظهرت فيها ثقافة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث بين عامى ١٠,٠٠٠ ، ٦٠٠٠ قبل الميلاد : وكان أصحاب هذه الحضارة أقواماً طوال الرؤوس تسميهم الروايات القـــديمة لجورى **Liguri** أو صقلى **Siceli** ، وكانوا يصنعون الفخار الساذج الخشن ويزينونه بنقوش مؤلفة من خطوط . كذلك كان هؤلاء الأقوام يصـــنعون أدوات وأسلحة من الحجارة المصقولة ويؤنسون الحيوان ويصيدونه هو والسمك ، ويدفنون موتاهم . ومنهم من كانوا يسكنون الكهوف ، ومنهم آخرون يســـكنون أكواخاً من القش والطين . ومن هـــذه الأكواخ الأسطوانية تدرج فن العمارة تدرجاً مستمراً حتى وصل إلى « بيت رميولوس **Romulus** » المستدير القائم على البلاتين **Palatine** وإلى هيكل فستا **Yesta** فى الســـوق العامة **Forum** وقبر هدريان **Hadrian** الفخم .

وغزت قبائل من أوربا الوسطى شمالى إيطاليا حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م ولعل هذا الغزو لم يكن الأول من نوعه . وقد أدخـــلوا فى البلاد عادة إقامة المبانى على قوائم خشبية فى الماء ليتقوا هجمات الوحوش والآدميين ، واستقر هؤلاء الغزاة فى بحيرات جاردا **Garda** ، وكومو **Como** ، ومجيورى **Meggiore** وغيرها من البحيرات الساحرة التى لا تزال تغرى الأجانب بالذهاب إلى إيطاليا ؛ ثم نزحوا فيما بعد إلى جنوب البلاد ، فلما لم يجدوا فيها من البحيرات الكثيرة ما كانوا يجدونه فى الشمال ، أقاموا مساكنهم على الأرض اليابسة ، ولكنهم رفعوها أيضاً على أسس من القوائم الخشـــبية . وكان من عادتهم أن يحيطوا هـــذه المساكن بالأسوار والخنادق ، وقد انتقلت هـــذه العادة إلى غير إيطاليا وأضحت من المظاهر المألوفة فى المعسكرات الرومانية وفى قصور العصور الوسطى . وكانوا يشتغلون برعى الماشـــية والضأن ، وفلاحة الأرض ، وصناعة النسيج ، وحرق الفخار ، وصناعة العدد الجم من الآلات والأسلحة البرنزية ، ومنها الأمشاط ومشابك الشعر

والأمواس والملاقط وغيرها من الأدوات التي لا يكاد الإنسان يصدق أنها ظهرت فى ذلك العهد البعيد . وكان البرنز قد ظهر فى إيطاليا فى أواخر أيام العصر الحجرى الحديث (حوالى ٢٥٠٠ ق . م)[٩] . وكانوا يتركون فضلات منازلهم تتراكم حول قراهم ، وبلغ من كثرتها أن أطلق على ثقافتهم اسم ثقافة ترامار **Terramare** — أى الثمط(*) الأرضى — وهى نفايات غنية بالعناصر المخصبة . ومبلغ علمنا أن هؤلاء الأقوام هم الأسلاف الأقربون للكثرة العظمى من سكان إيطاليا فى العصور التاريخية .

وأخذ المقيمون فى وادى البو من أبناء أهل هذه الأنماط استخدام الحديد عن ألمانيا ، وصنعوا منه أدوات خيراً من أدواتهم السابقة ، واستغانوا بها على نشر ثقافتهم الفلانوفية من مركزها فى فلانوفا **Villanova** القريبة من مدينة بولونيا **Bologna** إلى أقاصى جنوب إيطاليا . ومن حقنا أن نعتقد أن دماء الأمبريين **Umbrians** والسبيين **Sabines** واللاتين **Latins** ولغاتهم ، وأهم فنونهم ، كلها مستمدة من هؤلاء الأقوام . ثم حدثت هجرة أخرى جديدة حوالى عام ٨٠٠ ق . م أخضع أصحابها الفلانوفيين وأنشأوا بين نهر التيبر وجبال الألب أعجب حضارة فى سجلات الجنس البشرى .

(*) الثمط الطين الرقيق أو العجين ، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة **Marl** الانجليزية .
(المترجم)

الفصل الثانى

الحياة التسكانية

يكتنف تاريخ التسكان غموض شديد يضايق المؤرخ أشد الضيق . لقد حكم هؤلاء الأقوام مدينة رومة مائة عام أو أكثر من مائة ، وخلفوا فى أنماط الحياة الرومانية آثاراً تجعل فهم هذه الحياة وفهم تاريخ رومة متعذرين دون دراسة تاريخهم . ولكن الآداب الرومانية رغم هذه الآثار قد أغفلت ذكرهم كما تغفل المرأة النصف الجهر بأنها جاوزت سن الشباب . ومع ذلك فإن الحضارة الإيطالية ، أو ما سجل منها ، تبدأ من أيامهم ؛ فقد وجد مختلطاً بمخلفاتهم نحو ثمانية آلاف نقش وكثير من أعمال الفن ، كما وجدت شواهد على أدب ضائع يشمل الشعر والمسرحيات وكتب التاريخ (١٠). غير أن لغتهم لم يحل من رموزها إلا عدد قليل من الألفاظ لا غناء فيه ، ولا يزال العلماء الآن حيارى أمام ما يكتنف هذه المعضلة التسكانية من غموض أشد مما كان يكتنف تاريخ مصر الفرعونية قبل شمبليون .

ومن أجل هذا لا يزال الجدل يثور حول التسكانيين : من هم ؟ ومن أين جاءوا إلى إيطاليا؟ ومتى جاءوا إليها ؟ولعل الباحثين قد عجلوا بنبذ الروايات القديمة أسرع مما ينبغى ؛ ذلك أن المتحذلقين مولعون على الدوم بتفنيد ما يقبله الناس من الآراء ، ويسوءهم ما يبقى فى عقولهم منها . ولقد كان معظم المؤرخين اليونان والرومان يرون أن من القضايا التى لاتحتاج إلى برهان أن التسكانيين قد جاءوا من آسية الصغرى(١١) . والحق أن فى دينهم ، وثيابهم ، وفنهم ، شواهد كثيرة توحى بأصلهم الأسيوى ، وإن كان فيها أيضاً عناصر كثيرة يلوح أنها من أصل إيطالى . وأغلب الظن أن حضارة إتروريا **Etruria** قد نشأت من الثقافة

الثلانوڤية Villanovan وأنها تأثرت من الناحية التجارية بحضارات اليونان والشرق الأدنى ، وأن التسكانيين أنفسهم ، كما كانوا هم يعتقدون ، قد غزوا البلاد من آسية الصغرى ؛ والراجح أنهم جاءوا من بلاد ليديا Lydia ومهما يكن أصلهم فإن تفوقهم فى التقتيل قد جعلهم هم الطبقة الحاكمة فى تسكانيا .

ولسنا نعرف المكان الذى رسوا فيه حين قدموا بحراً إلى إيطاليا ، ولكننا نعرف أنهم شادوا أو فتحوا أو وسعوا مدناً كثيرة — مدناً لا قرى من القش والطين كما كانت الحال قبل مجيئهم ، بل بلاداً مسورة ذات شوارع منظمة على قواعد هندسية وبيوتاً غير مقامة من اللبن فحسب ، بل مقامة كثرتها من الآجر المحروق أو الحجارة . ثم ارتبطت اثنتا عشرة محلة من هذه المحلات فتكون منها اتحاد غير وثيق تسيطر عليه تاركوناى Tarquinii (المعروفة حتى هذه الأيام باسم كرنيتو Corneto) ، وأرتيوم Arretium (أرزو Arezzo) ، وپروزيا Perusia (پروجيا Perugia) ، وڤياى Veii (ايولا فارنيزى Iola Farnese(*)) .

وتضافرت فى هذه البلاد صعاب النقل فى الجبال والغابات مع التحاسد والتنافر المتأصلين فى الطبيعة البشرية ، كما تضافرا فى بلاد اليونان ، على إنشاء دويلات من مدن مستقلة ، إذا اتحدت لصد غارات أعدائها اعتزت كل منها بسلامتها منفردة عن غيرها ؛ وكثيراً ما كانت تقف لتشاهد العدو الخارجى يغير على أخواتها حتى خضعت كلها لرومة واحدة فى إثر واحدة . ولكن هذه المدن المتحالفة ظلت طوال القرن السادس قبل الميلاد أقوى سلطة سياسية فى إيطاليا ، وكان لها جيش حسن التنظيم ، به فرق من الفرسان ذائعة الصيت ، وأسطول بحرى كان فى وقت من الأوقات هو المسيطر على البحر الذى لا يزال إلى اليوم يسمى

(*) هذه هى الأسماء الرومانية ، أما الأسماء التسكانية فغير معروفة .

البحر الترهيني (أو البحر الإتروري أى التسكانى(*) .

وقد بدأ الحكم فى المدن التسكانية كما بدأ فى رومة بالنظام الملكى ، ثم صار حكماً أرستوقراطيا تقوم به « الأسر الأولى » ، ثم تخلى هذا الحكم تدريجاً للأسر ذات الأملاك عن حق اختيار الحكام الذين كانوا يبدلون فى كل عام . وفى وسعنا أن نستدل مما على قبور الأهلين من رسوم ملونة ونقوش محفورة على أن هذا النظام كان نظاماً إقطاعياً خالصاً يمتلك فيه الأعيان الأرض ويستمتعون بما يخرجه الأقنان والأرقاء الثلاثو فيون بكدحهم من خيرات ، بعد أن يتركوا لهم حاجتهم منها . وقد أصلحت أرض تسكانيا فى عهد هذا النظام ، فجففت مستنقعاتها وقطعت غاباتها ، وأنشئ فى قراها نظام للرى ، وفى مدنها نظام للمجارى لم يكشف حتى الآن عما يماثله فى بلاد اليونان فى ذلك العهد نفسه . وقد أنشأ المهندسون التسكانيون مجارى تحت الأرض يسير فيها ما زاد من مياه البحيرات ، وطرقاً فى الصخور والتلال(١٢) . ونرى العمال التسكانيين فى ذلك العهد البعيد وهو عام ٧٠٠ ق . م يستخرجون النحاس من شاطئ إيطاليا الغربى ، والحديد من جزيرة إلبا Elba ، ونرى الحديد الخفل يصهر فى پيولونيا Populonia ، والحديد المطاوع يباع فى جميع أنحاء إيطاليا(١٣) ، وكان التجار التسكانيون يتجرون مع جميع البلاد الواقعة على شاطئ البحر الترهانى ويأتون بالكهرمان والقصدير والرصاص والحديد من بلاد أوربا الشمالية ، وينقلونها فى نهرى الرين والرون وفوق جبال الألپ ، ويبيعون المنتجات التسكانية فى جميع ثغور البحر الأبيض المتوسط الكبرى . وما وافى عام ٥٠٠ ق . م أو نحوه حتى أصدرت المدن التسكانية الكبرى عملة خاصة بها .

(*) كان اليونان يسمون الإترسكيين Etruscans الترهينى Tyrrheni والترسينى Tyrseni . أما الرومان فكانوا يسمونهم الإترسكى Etrusci أو التسكى Tusci . ولعل الاسم اليونانى مأخوذ كما أخذ لفظ Tyrant من كلمة ترها Tyrrha وهى اسم غابة فى ليديا . والراجح أن كلمة Tower (البرج) مشتقة هى الأخرى من هذا الأصل .

وتمثل الرسوم التى نراها على القبور هؤلاء الأقوام فى صورة خلائق قصار القامات ، ممتلئى الأجسام ، كبار الرؤوس ، لا يكاد يوجـــد فرق بين ملامحهم وملامح أهل الأناضول ، وردى البشرة وخاصة نساءهم ؛ وإن تكن الأصباغ الحمراء قديمة قدم الحضارة ذاتها(١٤) ، واشتهرت نساؤهم بجمالهن(١٥) . وتلمح فى وجوه بعض الرجال الرقة والنبل . وكانت الحضارة فى ذلك العهد قد بلغت من الرقى مرحلة الخطر كما نستدل مما عثر عليـــه فى قبورهم من قناطر للأسنان الصناعية(١٦) ؛ وقد انتقل إليهم طب الأسنان ، كما انتقل الطب والجراحة ، من بلاد مصر واليونان(١٧) . وكانوا جميعاً رجالا ونساء يطيلون شعر الرأس ، وكان رجالهم يرسلون لحاهم . أما ثيابهم فكانت على الطراز الأيونى Ionian تتكون من قميص داخلى ومئزر خارجى هو الذى تطور حتى أصبح الكساء الرومانى المعروف باسم التوجا Toga . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين بالتزين ، وقد عثر المنقبون فى قبورهم على كثير من الحلى .

وإذا كان لنا أن نحكم على التسكانيين من الصور المرحة التى نراها على قبورهم ، قلنا إن حياة هؤلاء الأقوام كان فيها مشاق الحرب ، ونعيم الترف ، وبهجة الأعياد والألعاب . فكان الرجال يشنون الحرب العوان ، ويمارسون ضروباً من ألعاب الرجولة ، ويصيدون الحيوان ، ويصارعون الثيران فى المجتلد ، ويسوقون بأنفسهم عرباتهم فى الطرق الخطرة ، وكانت تجرها فى بعض الأحيان أربعة جياد تسير فى صف . وكانوا يتبارون فى رمى القرص والحربة ، والقفز من فوق الأعمدة ، والسباق والمصاعة والملاكمة والمجالدة . وكانت هذه الألعاب تمتاز بقسوتها ، لأن التسكان كالرومان كانوا يرون أن من الخطر آن يتركوا الحضارة تبتعد كثيراً عن الوحشية . وكان قليلو الشجاعة منهم يتبارون فى رفع الأثقال ، ولعب النرد ، والنفخ فى الناى ،

والرقص . وتتخلل الرسوم التى فى القبور مناظر من مرح الشراب تزيل ما يخيم عليها من كآبة ، وهى فى بعض الأحيان مقصورة على الرجال دون النساء ، يتحدثون فيها عن الخمر ، وفى بعضها الآخر يختلط الرجال بالنساء وهم جميعاً يلبسون أحسن الثياب ويتكئون متنى متنى على أرائك وثيرة ، يأكون ويشربون ، ويقوم على خدمتهم العبيد ، وتسليهم الراقصات والمغنيات(١٨)، وتزدان الوليمة أحياناً بمناظر يحتضن فيها الرجال النساء .

وأكبر الظن أن السيدة التى تُحتضن وقتئذ من الحظايا الشبيهات بحظايا اليونان (الهيتيريا) Hetaira . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله الرومان فإن فتيات تسكانيا كان يسمح لهن بالحصول على بائنتهن عن طريق الدعارة ، شأنهن فى هذا شأن فتيات آسية اليونانية ، وفتيات السمورای اليابانيات(١٩). وشاهد ذلك أنا نرى شخصية فى إحدى مسرحيات پلوتس Plautus تتهم فتاة تسمى للحصول على بائنة زواجها بامتهان جسمها على الطريقة التسكانية(٢٠) . ولكن النساء مع ذلك كانت لهن منزلة علية فى إثروريا ، وتمثلهن الرسوم تمثيل من لهن مقام عال فى جميع مناحى الحياة ؛ وكان الأبناء ينتسبون إلى أمهاتهم ، وفى ذلك أيضاً ما يوحى بأن القوم من أصل أسيوى(٢١). ولم يكن التعليم عندهم مقصوراً على الرجال ، وشاهد ذلك أن تناكويل Tanaquil زوجة تاركون الأول Tarquin قد برعت فى العلوم الرياضية والطب براعتها فى تدبير الدسائس السياسية (٢٢) . ويقول المؤرخ اليونانى ثيوپمپس Theopompus إن النساء فى إتروريا كن ملكا مشاعا(٢٣) . ولكنا لا نجد فيما وصل إلينا من المعلومات ما يثبت وجود هذه الطوبى الأفلاطونية ، بل إن كثيراً من الصور تمثل مناظر الروابط الزوجية ؛ والحياة العائلية ، والأطفال يسرحون ويمرحون حول أبويهم وهم سواء فى سذاجتهم وجهلهم .

وكان فى الدين كل البواعث التى تدعو إلى كبح الشهوات ، فقد خلع التسكانيون على آلهتهم كل الصفات التى تبعث الرهبة فى القلوب وتكبح جماح الفتيان والفتيات ، وتخفف أعباء الآباء والأمهات . وكان أعظم الآلهة هو تينيا Tinia المتصرف فى الرعد والبرق . وكان من حوله جماعة من الأرباب يأتمرون بأمره ، لا تأخذهم فى ذلك رأفة ، وهم الأرباب الإثنا عشر ، وقد بلغوا من العظمة حداً يجعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغتفر ، ولهذا نستميح القارئ عذراً إذا أغفلنا نحن ذكر هذه الأسماء .

وكان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هما منتوس Mantaus مانيا Mania سيد العالم السفلى وسيدته . وكان لكليهما حشد عظيم من الشياطين المجنحين يأتمرون بأمرهما . وكان أشد الأرباب غضباً لاسا Lasa ومين Mean إلهة الأقدار التى تمسك بيدها سيفاً أو أفعى تلوح بهما ، وتتسلح بقلم ومداد تستخدمها فى الكتابة ، وبمطرقة ومسامير تدق بها أوامرها التى لا تتحول عنها . وأظرف من هذه الأرباب معبودو البيت ومعبوداته ، وكانت فى صورة تماثيل صغيرة توضع على المدافئ وتمثل أرواح الحقول والدور .

ولعل العلم المقدس ، علم معرفة الغيب بدراسة أكباد الضأن أو طيران الطير ، قد جاء إلى التسكانيين من أرض بابل . ولكن الرواية التسكانية تقول إن الذى كشف لهم عن هذا العلم غلام مقدس هو حفيد تينيا ، وقد خرج إلى الحياة من أخدود محراث ، وفاه بساعته بحكمة الحكماء . وكانت الطقوس التسكانية تنتهى إلى التضحية بالضأن والثيران والآدميين . فكان الضحايا من بنى الإنسان يذبحون أو يدخنون أحياء فى مياتم العظماء . وكان أسرى الحرب يذبحون أحياناً طلباً لرضا الآلهة ، ولهذا السبب رجم الفوقيون Phoceaxs فى ألاليا Alalia عام ٥٣٥ ق . م فى سوق كايرى Caere العامة ، وضحى بنحو ثلثمائة من الرومانيين فى عام ٣٥٨ ق م

فى تاركوينای ، ويلوح أن للتسكانى كان يعتقد أن فى وسعه أن يطلق روحا من الجحيم نظير كل رجل يقتله من أعدائه(٢٤) .

وكان أهم مظاهر الدين التسكانى هو الإيمان بوجود الجحيم فى الدار الآخرة ؛ فقد كانت روح الميت ، كما نراها فى الصور والنقوش التى على القبور ، يسير بها الجن إلى محكمة الدار الآخرة ، حيث تتاح لها الفرصة فى يوم الحساب الأخير للدفاع عن أعمالها فى الحياة الدنيا . فإذا عجزت عن تبرير هذه الأعمال حكم عليها بضروب مختلفة من التعذيب ، كان لها بلا ريب أثر فى شعر ڤرچيل Virgil (المستمد من قصص منتوا التسكانية) وفى فكرة المسيحيين عن الجحيم ، وفى حجيم دانتى Dante's Inferno التسكانى الذى سرت إليه عن طريق هؤلاء المسيحيين من خلال عشرين قرناً من الزمان ؛ وكان الأرباب بمنجاة من هذا التعذيب ، كما كان فى وسع الأحياء من أصدقاء الموتى المعذبين أن يقصروا أمد عذابهم بما يقدمون من الأدعية والقرابين . فإذا نجحت الروح من هذا العذاب انتقلت من العالم السفلى إلى صحبة الآلهة الأعلين لتستمتع معهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التى صورتها آمال الأحياء على القبور .

وكان التسكانيون يدفنون موتاهم فى الأحوال العادية ، وكان الموسرون منهم يوضعون فى توابيت الطين المحروق أو الحجارة حفرت على السطوح العليا أغطيتها صور أشخاص متكئين ، يشبه بعضهم الموتى الذين كانوا فى التوابيت ، ويشبه بعضهم الصورة اليونانية الباسمة التى كان اليونان الأقدمون يصورون بها أپلو Apollo ؛ ولقد كان لهذه الصور أيضاً أثرها فى فن العصور الوسطى . وكان الموتى فى بعض الأحيان يحرقون ، ويوضع رمادهم فى أوعية تزين أحيانا بصور الأموات . وكان الوعاء أو القبر فى بعض الأحيان فى صورة البيت ، وفى بعضها الآخر كان القبر المنحوت فى الصخر يقسم إلى حجرات ، ويهيأ لحياة الميت

فى الدار الآخرة بالأثاث والآنية والمزهريات ، والملابس ، والأسلحة ، والمرايا وأصباغ الزينة والجواهر ، وقد عثر فى قبر فى كارى Caere على هيكل رجل محارب راقد على سرير من البرنز كامل الشكل ، وإلى جانبه أسلحته وعجلته الحربية ، ووجدت فى حجرة خلف حجرة هذا الميت حلى وجواهر لسيدة لعلها زوجته وقد اكتسى التراب — الذى كان فى يوم من الأيام جسمها المحبوب — بثياب عرسها(٢٥) .

الفصل الثالث

الفن التسكانى

يكاد الفن التسكانى أن يكون وحده كل ما نعرف عن تاريخ التسكانيين ، فنى وسعنا أن نتتبع فيه آداب الشعب وأخلاقه ، وما كان للدين والطبقات من سلطان ، وما كان لصلاته بآسية الصغرى ومصر وبلاد اليونان ورومة من أثر فى تبدل أحوال هذا الشعب الاقتصادية والثقافية . لقد كان هذا الفن شديد التقيد بالعرف والتقاليد الدينية ، وإن كانت المهارة الفنية قد أكسبته الكثير من الحرية ؛ وكان يكشف عن حضارة وحشية مظلمة ، ولكنه يعبر عنها فى قوة ؛ وقد حدد أشكاله الأولى وأنماطه الفنُّ الشرقى — الأيونى ، والقبرصى ، والمصرى ، وسيطرت النماذج اليونانية على نحته وخزفه . وأما فى العمارة والتصوير فإن الفن التسكانى كان تسكانياً خالصاً فذاً فى نوعه .

ولا يتعدى ما بقى من آثار فن العمارة التسكانية بضع قطع قليلة مبعثرة وبعض القبور ؛ ولا تزال أجزاء من أسوار المدن الإترورية قائمة حتى اليوم — وهى مبان ثقيلة خالية من الملاط ولكنها شديدة التماسك قوية . وتدل بيوت أغنياء التسكانيين على ما كانت عليه أشكال البيوت الإيطالية فى العهد القديم : فقد كان الواحد منها يتكون من سور خارجى يحجب سكان البيت عن أعين من فى خارجه ، ومن إيوان أو حجرة استقبال فى وسطه ، وفى سقف الإيوان فتحة ينزل منها المطر إلى صهريج فى أسفل البيت ؛ ومن حول الإيوان طائفة من الحجرات الصغيرة يواجهها فى أغلب الأحيان مدخل ذو عمد . وقد وصف ڤتروفيوس Vitruvius المهندس والبناء هياكل التسكانيين وصفاً ينطبق فى بعض الأحيان على قبورهم أيضاً ويستفاد من هذا الوصف أن الهياكل كانت فى جوهرها تتبع

الطرز اليونانية ، غير أن « الطراز التسكانى » قد أدخل بعض التعديل على الطراز الدورى ، بأن ترك العمد خالية من الحزوز ، وأقامها على قواعد ، وجعل نسبة الطول إلى العرض فى جسم المعبد كنسبة ٦ : ٥ بدل النسبة الأتيكية Attic الرشيقة وهى ٦ : ٣ . وفى وسعنا أن نصف الهيكل التسكانى وصفاً موجزاً بقولنا إنه يتكون من بناء رئيسى من الآجر ورواق من الحجارة ، ومن عوارض فوق العمد ومقصات من الخشب ، ومن نقوش وحلى من الطين المحروق ؛ ويقوم البناء كله على قاعدة متصلة أو ربوة ، ويطلى بالألوان الزاهية من داخله وخارجه . وكذلك نستطيع أن نقول على قدر ما وصل إليه علمنا بتاريخ التسكانيين إنهم أدخلوا فى إيطاليا العقود والقباب فى الأبنية المقامة لغير الأغراض الدينية — كأبواب المدن ، وأسوارها ، ومجارى المياه ومصارفها . ويلوح أنهم جاءوا بهذه الأشكال الفخمة من بلاد ليديا Lydia ، وكانت هذه قد أخذتها عن بلاد بابل(*) ، ولكنهم لم يتبعوا تلك الطريقة البديعة طريقة تغطية مساحات واسعة من الأراضى بالأبنية الخالية من العمد والعوارض الكثيرة المختلطة المقبضة المملة . وقد ظلوا فى معظم الأحوال يتبعون الأساليب التى هيأها لهم اليونان ، وتركوا إلى رومة أن ترتفع بالأقواس والمنحنيات إلى ذروة الكمال فتحدث بذلك انقلاباً عظيما فى فن العمارة .

والخزف أشهر ما أخرجته بلاد إترووريا ، تزدحم به كثير من متاحف العالم وإن كان من يطوف بهذه المتاحف لا يرى فى هذا الخزف من الكمال ما يبرر أن تحشد هذه الكميات الكبيرة منه . فالمزهريات التسكانية ، إذا لم تكن منقولة عن الأنماط اليونانية ، لا ترتفع فوق الدرجة الوسطى فى تصميمها ، وهى فخمة خشنة فى صنعها ، وبدائية همجية فى زينتها . وليس ثمة فن من

(*) وكانت تستخدم فى المقابر والهياكل المصرية وفى قصور نينوى . وتبلغ بعض العقود الرومانية من القدم ما بلغت أى العقود الباقية فى إترووريا(٢٦) .

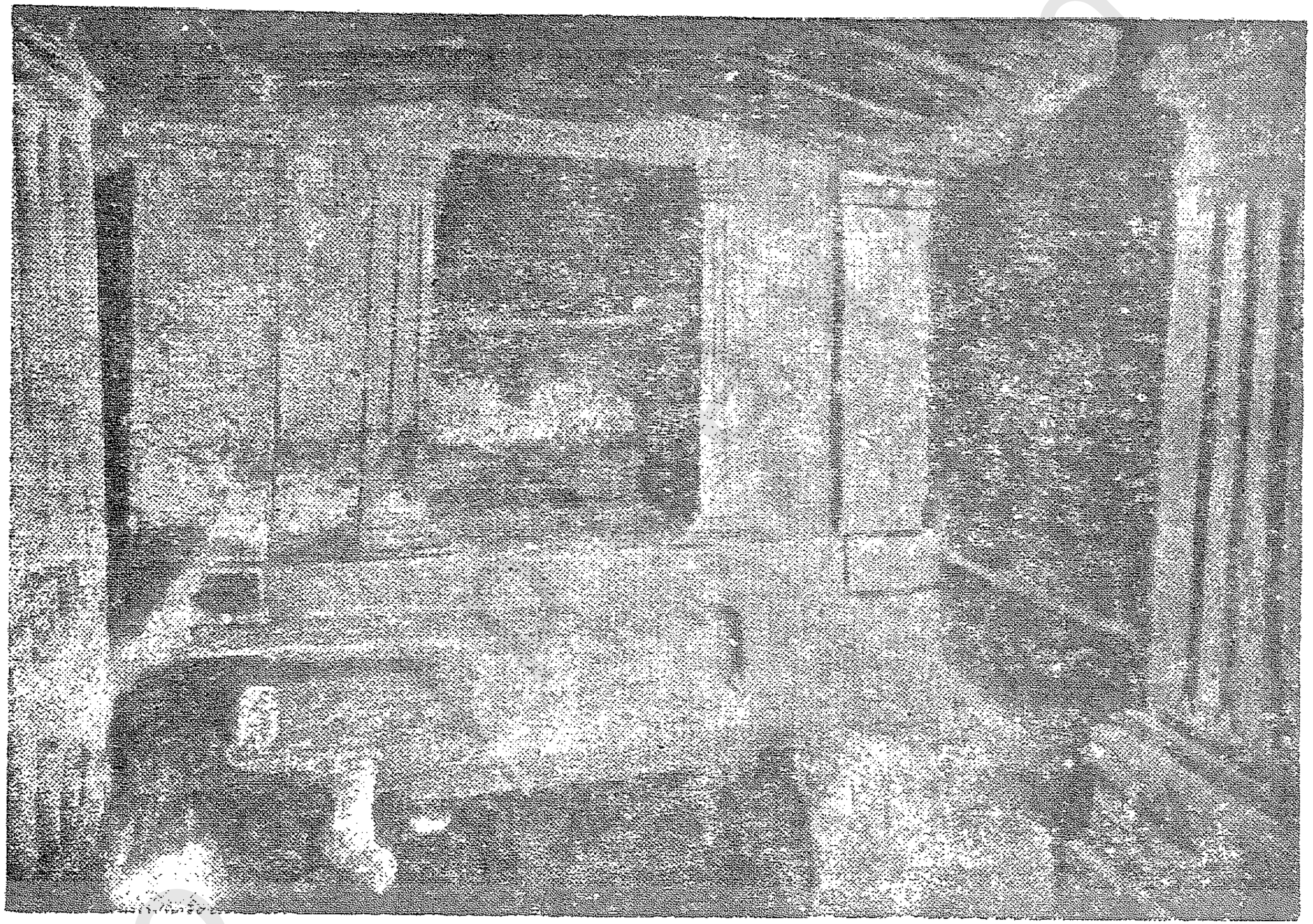

(شكل ٣) قبر تسكانى فى سرقترى)

الفنون قد شوه الجسم البشرى كما شوهه الخزف التسكانى ، أو أخرج من الوجوه المتنكرة البشعة أو الحيوانات الفظة ، أو الشياطين المهولة ، أو الآلهة المروعة ، أكثر مما أخرجه هذا الخزف . غير أن الآنية السوداء المصنوعة فى القرن السادس قبل الميلاد تسرى فيها قوة إيطالية ، ولعلها تمثل تطوراً محلياً من الأنماط الڤلانوڤية . وقد عثر على مزهريات جميلة فى ڤلسى Vulci وتاركوينای — نقلت من أثينة أو صنعت على مثال الزهريات الأتيكية ذات الرسوم السوداء . ويلوح أن مزهرية فرنسوا Francois وهى جرة كبيرة ذات عروتين عثر عليها فى شيوزى Chiusi فرنسى يسمى بهذا الاسم — يلوح أن هذه المزهرية من صنع الفنانين اليونانيَّين كليتيا Clitias وإرجتيمس Ergotimus . أما آنية رماد الموتى التى صنعت فى العهود المتأخرة ، والتى رسمت عليها صور حمراء على أرضية سوداء ، فهى رشيقة الصنع ولكنها أيضاً صناعة يونانية بلا ريب ، وإن كثرتها لتدل على أن صناع الخزف الأتيكيين قد سيطروا على الأسواق التسكانية ولم يبقوا فيها للصناع الوطنيين إلا المصنوعات التى لا تمت إلى الفن بصلة . وفى وسعنا أن نقول عن فن الخزف بوجه عام إن اللصوص كانوا على حق حين تركوا كل هذا الخزف فى القبور التسكانية بعد انتهابها .

لكننا لا نستطيع أن نستخف هذا الاستخفاف كله بفن البرنز التسكانى ذلك بأن الذين كانوا يصبون المصنوعات البرنزية فى إترووريا قد وصلوا بهذا الفن إلى درجة الكمال . ويكاد ما صنعوه منه أن يبلغ من الكثرة ما بلغته الآنية الخزفية ، وحسبنا شاهداً على هذه الكثرة أن مدينة واحدة من مدنهم كان فيها على قولهم ألفا تمثال برنزى . ويرجع معظم ما وصل إلينا من المصنوعات البرنزية إلى عهد سيطرة الرومان على تلك البلاد . وأشهر هذه الروائع الفنية كلها تمثالان هما تمثال الخطيب الذى يقف الآن فى متحف العاديات فى مدينة فلرنس Florence تحف به هالة من المهابة الرومانية والتحفظ البرنزى ، وتمثال المولة الذى عثر عليه فى

أرزو Arezzo عام ١٥٥٣ الذى أعاد إليه سلينى الفنان الإيطالى بعض ما حطم من أجزائه . وثانى التمثالين بشع المنظر ، وأكبر الظن أنه يمثل الوحش الذى ذبحه بلروفون Bellerophon ، له رأس أسد وجسمه ، وذيل أفعى ، وقد نبت له فى ظهره رأس جدى ، غير أن قوته وصقله تنسياننا ما فى خلقه من شذوذ وغرابة . وقد أخرج صناع البرنز التسكانيون آلاف الآلاف من التماثيل الصغيرة والسيوف ، والحوزات ، والدروع ، والحرب ، وآنية للطهو ولحفظ رماد الأموات ، والنقود ، والأقفال ، والسلاسل ، والمراوح ، والمرايا ، والسرر ، والمصابيح ، وحاملات الشموع ، بل صنعوا منه العربات نفسها . ومن يزر متحف الفن فى نيويورك ير فى صدره عربة تسكانية جسمها ودواليبها من الخشب ولكن البرنز يكسو الجسم وإطار الدواليب ، وقد نقش فى أعلى مقدمها صور من البرنز غاية فى الرشاقة . وكان كثير من الأدوات البرنزية يحفر عليه أشكال دقيقة جميلة . وكانت طريقتهم فى هذا أن يغطوا السطح الذى يريدون نقشه بالشمع ، ثم يرسموا عليه الشكل الذى يريدونه بقلم معدنى ذى سن حادة ، يغمسون طرفها فى بعض الأحماض ، فتحفر الخطوط التى يزول عنها الشمع فى معدن البرنز ، ثم يذاب الشمع كله بعدئذ . وكان الفنان التسكانى وارث الفنانين المصرى واليونانى ، وندهما فى النقش على الفضة والذهب والعظام والعاج .

أما النحت فى الحجارة فلم يكن فى يوم ما فناً شائعاً فى إترووريا . فقد كان الرخام فيها نادراً ، ويبدو أن محاجر كرارا Carrara لم تكن قد عرفت بعد . لكن الصلصال الجميل كان فى متناول الأيدى ، وسرعان ما تشكل وظهر فى صور آلاف مؤلفة من نقوش وتماثيل صغيرة وزينات للمقبور والدور من الطين المحروق . وقد أنشأ أحد الفنانين التسكانيين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد مدرسة لتعليم فن النحت فى ڤياى Veii أخرجت على يديه آية الفن التسكانى ، وهى تمثال أپلو ڤياى Apollo of Veii الذى عثر عليه فى عام ١٩١٦ فى موضع هذه المدرسة ، والذى ظل

(شكل ٤) راس امرأة
من قبر تسكانى فى كرنيتو

إلى عهد قريب قائماً فى ڤلاجوليا Villa Ouilia فى رومة . وقد صنع هذا التمثال الجذاب على غرار تماثيل أپلو اليونانية والأتيكية المنحوتة فى ذلك الوقت ؛ وهو ذو وجه يكاد يكون وجهاً نسائياً كالذى نشاهده فى صورة مونا ليز Mona Lisa ، ويفتر ثغره عن ابتسامة رقيقة، وأسنان مائلة مقوسة، وجسمه تسرى فيه دلائل الصحة والجمال والحياة . ويطلق الطليان على هذا التمثال اسم « أپلو الذى يمشى » il Aqollo che Cammina . وقد ارتقى المثالون التسكانيون فى هذا التمثال وفى غيره من الصور الجميلة الكثيرة المنقوشة على توابيت الموتى ، ارتقوا بالأنماط الأسيوية من صور الشعر والشباب إلى درجة الكمال . أما فى تمثال الخطيب فقد أوجدوا هم أو وارثوهم الرومان فناً من التصوير الواقعى .

وقد تعاون فن الرسم التسكانى مع فن إيطاليا اليونانية على نقل فن آخر من الفنون إلى رومة . ولقد وصف پلنى الأكبر Pliny المظلمات التى وجدت فى أرديا Ardea بأنها « أقدم من رومة نفسها » ، وقال عن مظلمات كثيرى إنها « أقدم من السابقة » وإنها « تفوقها روعة وجمالا(٣٧) » واستخدمت فى الرسم الأوانى الخزفية ، وجدران المنازل والقبور من الداخل : ولم يبق لنا إلا مظلمات القبور والرسوم على المزهريات ، ولكنها تبلغ من الكثرة حداً نستطيع معه أن نتتبع كل ما مر بفن التصوير التسكانى من أدوار مختلفة — من طرز شرقية ومصرية ، تنتقل عن طريق اليونان والإسكندرية إلى طرز رومة وپمپى . ونجد فى بعض المقابر النماذج الإيطالية الأولى للنوافذ ومداخل الدور ، والأعمدة ، وكلات الأبواب ، وغيرها من الأشكال الهندسية المعمارية ، مصورة بالألوان على الجدران الداخلية ، ولا تفترق فى شىء عما نجده منها فى مدينة پمپى . وكثيراً ما نرى ألوان هذه المظلمات حائلة ، ولكن القليل منها يبدو جديداً براقاً إلى حد يدهش له الرائى ، بعد أن مضى عليه أكثر من عشرين قرناً من الزمان . أما من حيث

القواعد الفنية فإن هذه الرسوم لا ترقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى ، فالصور القديمة لم تراع فيها قواعد المنظور .

ولم يستخدم الضوء والظل لتمثيل العمق والامتلاء ، والصور رفيعة أشبه من هذه الناحية بالصور المصرية ، ويخيل إلى الناظر إليها أنه يراها من خلال مرآة محدبة أفقية ؛ والوجوه كلها جانبية أيا كانت الجهة التى تشير إليها القدمان ؛ غير أن فن المنظور يظهر فى النماذج المتأخرة ، كما أن التناسب بين أجزاء الجسم المختلفة يراعى بمهارة وأمانة . لكن هذه الصور وتلك يبدو عليها نزق ومرح وخبث لا يسع الإنسان معها إلا أن يدهش مما كان يحيط بالحياة التسكانية من بهجة إذا كانت قبورهم مفرحة إلى هذا الحد .

فهنا رسوم تمثل رجالا يقتتلون ، أو يستمتعون بمشاهدة القتال ، أو يتصارعون ويثاقفون فى المجتلدات ، ويصيدون الآساد والخنازير البرية بشجاعة الرجال الذين يراهم النظارة ، أو يتوقعون أن يروهم ، ويلاكمون أو يصارعون فى ساحة الصراع والنظارة يتناقشون بقوة تفوق قوة المصارعين ، ويركبون خيولهم أو يسوقون عرباتهم حول المدرج ، أو يصيدون السمك فى هدوء واطمئنان عظيمين . ويمثل أحد الرسوم زوجين يدفعان قارباً على مهل فى مجرى هادئ المياه : ألا ما أقدم حكمة الحكماء . وفى صورة على قبر من قبور كثيرى يُرى رجل وزوجته متكئين على أريكة ، والرجل متوج الرأس بالغار ، ويعاهد زوجته وفى يده كأس من الشراب على أن يكون وافياً لها مخلصاً على الدوام ، وتبتسم الزوجة وتصدقه وإن كانت تعرف أنه يكذب عليها .

ويرسم المصور التسكانى على جدار مقبرة أخرى ما ارتسم فى ذهنه من صورة الجنة . ويصور المرح الدائم ، ويصور الولدان يرقصون رقصاً عنيفاً على أصوات المزمار المزدوج والقيثارة . ويلوح أن المزمار ، والقيثارة ، والصفارة والبوق ، كانت مستلزمات كل وليمة ، وكل حفلة عرس أو جنازة ، وأن

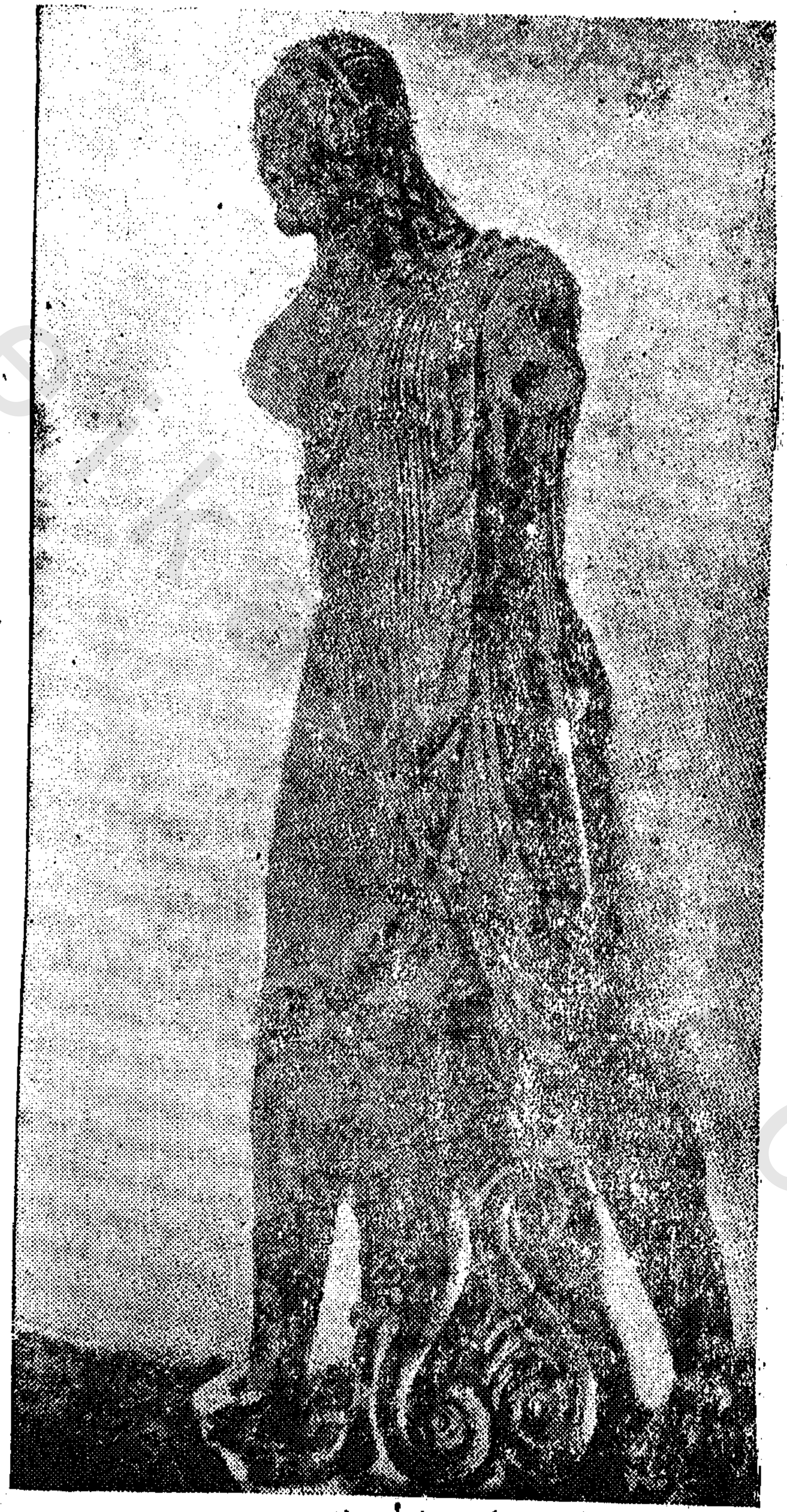

(شكل ٥) أبلو قاى – رومة

حب الموسيقى والرقص كان من المظاهر الجميلة فى الحضارة التسكانية ؛ ونرى الصور المرسومة على جدران قبر اللبوءة فى كرنيتو Corneto تدور حول نفسها فى جنون المخمورين(٢٨) .

* * *

وكان طبيعياً أن يوسع التسكان أملاكهم نحو الشمال والجنوب ، وأن يمدوا سلطانهم إلى قواعد جبال الألب ، وإلى مدن كمپانيا Campania اليونانية ، وأن يجدوا أنفسهم بعدئذ وجهاً لوجه أمام رومة الناشئة على الشاطئ الآخر من نهر التيبر Tiber ؛ وقد أنشأوا لهم مستعمرات فى ڤرونا Verona بدوا Padua ، ومنتوا Mantua ، وپارما Parma ، ومودينا Modena ، وبولونيا Bologna ، وفى الجهة الأخرى من جبال أپنين Appenine فى رمينى Rimini ، وراڤنا Ravenna ، وأدريا Adria ، وهى فرضة صغيرة سمى باسمها البحر الأدرياوى . وأحاطوا رومة بمستقرات تسكانية فى فيدينى Fidnae ، وبرنيستى Paraeneste (پاسترينا Palestrina) وكپوا Capua ، ولعلهم استقروا أيضاً فى مسكولم Musculum (« تسكانيا الصغرى ») ؛ وما وافى عام ٦١٨ ق . م — كما تقول رواية مشكوك فى صحتها ولكنها تحدد هذا التاريخ تحديداً عجيباً — حتى استولى أحد المغامرين التسكان على عرش رومة ، وظلت الأمة الرومانية مدى قرن كامل تسيطر عليها قوة التسكانيين ويشكلون حضارتها .

الفصل الرابع

رومة تحت حكم الملوك

وعبر نهر التيبر حوالى عام ١٠٠٠ ق . م جماعة مهاجرون من ڤلانوڤا واستقروا فى لاتيوم **Latium** ، ولا يعرف أحد هل غلب هؤلاء المهاجرون من وجدوهم فى تلك البلاد من السكان الأصليين الذين كانت ثقافتهم فى ذلك العهد لا ترقى عن ثقافة أهل العصر الحجرى الحديث ، أو أبادوهم ، أو اكتفوا بالاختلاط بهم والزواج منهم . ومهما يكن ما فعلوه بهم فقد أخذت القرى الزراعية التى كانت قائمة فى هذا الإقليم التاريخى العظيم بين نهر التيبر وخليج نابلى **Naples** تجتمع وينضم بعضها إلى بعض حتى تكون منها عدد قليل من دويلات المدن المستقلة المتحاسدة التى لم تكن تتحد بعضها مع بعض إلا فى الأعياد الديلية السنوية أو فيما كان يقوم بينها من حروب . وكان أكبر هذه المدن هى ألبا لنجا **Alba Longa** القائمة عند سفح جبل ألبان **Mt. Alban** ، والراجح أن موضعها كان فى موضع قصر جندلفو **Cnstel Gandlfo** الذى يأوى إليه البابا فى أيام الصيف فى الوقت الحاضر . ومن ألبا لنجا تحرك جماعة من اللاتين — ولعل ذلك كان فى القرن الثامن قبل الميلاد — مدفوعين بحب الغزو أو بازدياد عددهم لكثرة من ولد لهم من الحفدة والأبناء ، تحركوا قرابة عشرين ميلا نحو الشمال الغربى ، وأنشأوا المدينة التى صارت فيما بعد أعظم مدن العالم وأوسعها شهرة .

ولسنا نعرف عن نشأة رومة أكثر مما ذكرناه فى الفقرة السابقة التى ليس فيها إلا ما هو فروض غير موثوق بصحتها . ولكن القصص الرومانية تروى عن ذلك الأصل الشىء الكثير . ذلك أنه لما حرق الغاليون المدينة فى عام ٣٩٠ ق . م احترقت فى أغلب الظن معظم سجلاتها التاريخية ، فاتسع المجال

أمام خيال أهليها، وأغرتهم وطنيتهم إلى تصوير أصل المدينة فى صورة مطلقة من كل القيود ، فحددوا تاريخ بنائها فى اليوم الذى يوافق اليوم الثانى والعشرين من شهر إبريل عام ٧٥٣ ق.م، وأخذوا يؤرخون الحوادث «من عام تأسيس المدينة » A.U.C. auno urbis conditae ، وأخذت مائة قصة وألف قصيدة تصف خروج إينياس Aeneas ابن أفروديتى — ڤينوس (الزهرة) Aphrodite-Venus من طروادة المحترقة ، ومجيئه إلى إيطاليا بآلهة مدينة پرام Priam(*) وما كان فيها من صور مقدسة ، بعد أن قاسى الأهوال فى البلاد الكثيرة التى مر بها ، ولاقى ألوان العذاب من سكانها . وتزوج إينياس من لافينيا Lavnia ابنة ملك لاتيوم ، وتقول القصة إن نمتور Numitor أحد أحفادهما جلس على عرش ألبا لنجا حاضرة لاتيوم بعد ثمانية أجيال من هذا الزواج . ثم اغتصب العرش منه رجل يدعى أمليوس Amulius وأخرجه من المدينة ، وأراد أن يقضى على أسرة إينياس كلها فقتل جميع أبنائه الذكور ، وأرغم ابنته الوحيدة ريا سلفيا Rhea Si via على أن تصبح كاهنة لفستا Vesta ، وأن تترهب وتقسم أن تظل عذراء حتى الممات . ولكن ريا رقدت يوماً على شاطئ مجرى ماء ، « وفتحت صدرها لتتلقى النسيم »(٢٩) واستغرقت فى النوم وهى واثقة أكثر مما يجب بطهارة الآلهة والآدميين . وأسر جمالها قلب المريخ Mars فحملت منه بتوأمين ، فلما وضعتهما أمر أماليوس بإغراقهما فى النهر ، فوضعا فوق رمس ، وأشفقت عليهما الأمواج فحملتهما إلى البر ، وأرضعتهما ذئبة (Lupa) أو — فى رواية أخرى — زوجة راع تدعى أكا لارنتيا Acca Larentia ويكنونها لوپا Lupa لأن حبها عارم كحب الذئاب . فلما شب رميولوس Romulus وريموس Remus قتلا أماليوس ، وأعادوا نُمتور إلى العرش ، وسارا تحدوهما قوة الشباب وعزيمته لكى ينشئا لهما مملكة على تلال رومة .

(*) يقصد طروادة . (المترجم)

ولم يكشف علم الآثار عن شيء يؤيد هــذه القصص التي تروى عن نشأة رومة وعهدها الأول ؛ ولعل في هذه القصص شيء من الحقيقة ، فليس ببعيد أن يكون اللاتين قد أرسلوا نفراً منهم ليشيدوا مدينة رومة لكي يتخذوها حصناً يقيهم شر التسكان الذين كانوا يوسعون رقعة بلادهم في ذلك الاتجاه . وكان موقع المدينة على بعد عشرين ميلا من شاطئ البحر ، ولم يكن موقعاً ملائماً للتجارة البحرية ، ولكنــه كان من المستحب في تلك الأيام أيام القرصان المغيرين النهابين أن تكون مواقع المدن بعيدة عن شاطئ البحر قليلا ، أما من حيث التجارة الداخلية فقد كانت رومة عنــد ملتقى طريقي التجارة ، طريق النهر والطريق البرى الممتد من الشمال إلى الجنوب ؛ ولم يكن موقعها بالموقع الصحي ، فقد كانت الأمطار وفيضانات الأنهار ، ومياه العيون ، تملأ المناقع الكثيرة في الســهل المحيط بالمدينة ، ومن ثم كانت شهرة التلال السبعة ؛ وتقول الرواية إن أول ما استوطنه المهاجرون من هذه التلال هو تل پلاتين Palatine ، ولعل سبب ذلك أن جزيرة قرب سفح هذا التل قد يسرت للمستعمرين عبور نهر التيبر وإقامة جسر عليه ؛ ثم استوطنوا بعدئذ سفوح التلال المجاورة واحداً في إثر واحد ، وما لبثوا أن عبروا النهر وشادوا الفاتيكان Vatican والجانكيولوم Janiculum (*) . ثم تحالفت القبائل الثلاث — اللاتين والسبنيون والتسكان — التي اســتوطنت التلال وأنشأت منها اتحاداً يسمى السپتيمنيوم هو الذى نشأت فيه على مهل مدينة رومة .

وتقول القصة القديمة بعدئذ إن رميولوس أراد أن يأتي بأزواج لرجاله ، فأعد ألعاباً عامة دعا إليها السبنيين وغيرهم من رجال القبائل الأخرى ، وبينا كان السباق جارياً في مجراه إذ انقض الرومان على نساء السبنيين فاستولوا

(*) لقد كان في رومة أكثر من هذه التلال السبعة المتواضعة ، ولم تكن هذه « السبعة » هي بعينها في جميع الأوقات . غير أنها في أيام شيشرون كانت هي Palatine Capitoline, Caelian, Esquiline, Aventine, Viminal, quirinal.

obeikandi.com

عليهن . وطردوا الرجال من حلبة السباق ، فما كان من تيتس تاتيوس Titus Tatius ملك قبيلة الكيوريين Curites السبنية إلا أن شن الحرب على رومة ، وسار بجيوشه لغزوها . وفتحت تربيا Tarpeia ابنة الرومانى الموكل بإحدى القلاع القائمة على الكپتولين باب القلعة إلى الغزاة . وقد جازوها على عملها بأن دقوا عظامها بدروعهم ، وأطلقت الأجيال التى جاءت من بعد اسمها على « صخرة تربيا » التى كان يلقى من فوقها المقصى عليهم بالإعدام ليلقوا حتفهم . ولما اقترب جنود تاتيوس من تل البلاتين سعت نساء السبنيين — اللاتى كن يشعرن بنعم الأسر — إلى عقد هدنة بين الطرفين ، وحجتهن فى هذا أنهن سيخسرن أزواجهن إذا انتصر الكيوريون ، وسيخسرن إخوتهن أو آباءهن إذا انهزموا . ونجح النساء فى سعيهن وأقنع رميولوس تاتيوس ملك السبنيين بأن يشاركه ملكه ، وأن تنضم قبيلته إلى اللاتين ، فتصبح من مواطنى رومة ، ومن ذلك الوقت سمى أحرار رومة بالكيوريين أو الكويريين (Quirites Curites)(٣٠) . ولعل فى هذه القصة الخيالية كلها هى الأخرى بعض الحقائق — أو لعل النعرة الوطنية قد صاغتها لتخفى بها فتح السبنيين مدينة رومة .

وحكم رميولوس رومة زمناً طويلا رفع بعدها إلى السماء فى عاصفة ، واتخذ من بعد ذلك إلهاً من آلهة الرومان المحببين ، يعبدونه باسم كويرينوس Quirinus(٣١) . ولما مات تاتيوس أيضاً اختار رؤساء الأسر الكبيرة رجلا من السبنيين يدعى نوما پمپليوس Numa Pompilius ملكاً على رومة . والراجح أن السلطة السياسية الحقيقية فيما بين تأسيس رومة وسيطرة التسكان عليها كانت فى أيدى هؤلاء الرؤساء أو السناتوريين ، على حين أن أعمال الملك كانت كأعمال الأركان باسليوس Archon basileus فى مدينة أثينة فى هذا الوقت عينه ، ولا تخرج عن أعمال الكاهن الأكبر(٣٢) . وتصور الأقاصيص الملك نوما السبينى فى صورة شبيهة بالإمبراطور ماركس أوريليوس Marcus Aurilius ، تصوره فيلسوفاً وقديساً معاً . ويقول عنه لينى Livy إنه :

« عمل على أن يبعث فى قلوب الشعب الخوف من الآلهة ، ويجعل ذلك الخوف أقوى أثراً فى قلوب ... الأقوام الهمج : وإذ كانت جهوده فى هذه السبيل لا توصله إلى الهدف الذى يسعى إليه إلا إذا كان مرجعها إلى حكمة غير حكمة البشر ، فقد ادعى أنه كان يلتقى فى الليل بإيجيريا Egeria الحورية المقدسة ، وإنه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس والمراسم الدينية التى هى أحب الطقوس إلى السماء ، ويعين الكهنة لكل إله من كبار الآلهة(٣٢) .

ولما أفلح نوما فى توحيد دين قبائل رومة المختلفة ، وإزالة ما بينها من فروق فى العبادات ، قوى بذلك وحدة الدولة وزادها استقراراً (٣٣) ، ويقول شيشرون إن نوما، حين وجه اهتمام الرومان المولعين بالحرب والقتال إلى شئون الدين ، نشر لواء السلام بين شعبه مدى أربعين عاماً (٣٤) .

وأعاد خليفته تلس هستليوس Tllus Hostilius إلى الرومان حياتهم العادية التى ألفوها من قبل « ولما رأى أن قوى الدولة آخذة فى الانحلال لطول عهدها بالخمول أخذ يتطلع إلى حجة يتذرع بها لإيقاد نار الحرب(٣٥) » ، واختار عدواً له مدينة ألبا لنجا التى كانت هى أصل مدينة رومة ومنشأها ، فغزاها ودمرها عن آخرها . ولما نكث ملك ألبا بوعده أن يحالفه أمر به تلس فشد إلى عربتين سارتا فى اتجاهين متضادين فمزق جسمه إربا(٣٦) ، ولم ير خليفته أنكس مارتيوس Ancus Martius بأساً فى اتباع هذه الفلسفة العسكرية ، فقد كان أنكس يعلم كما يقول ديوكاسيوس Dio Cassius :

أنه لا يكفى من ينشدون السلم أن يمتنعوا عن أذى الناس ؛ بل إنه كلما اشتدت رغبة الإنسان فى هذا السلم اشتد تعرضه للأذى . وكان يرى أن الرغبة فى الهدوء لا تحمى الإنسان من الأذى إلا إذا صحبها الاستعداد للحرب ، وكذلك كان يعتقد أن الابتهاج بالبعد عن المشاكل الخارجية سرعان ما يقضى على الذين يسرفون فى حماستهم لهذا البعد(٣٧) .

الفصل الخامس

سيطرة التسكانيين

وتروى الأقاصيص بعدئذ أن دمراتس Demaratus ، وهو تاجر ثرى نقى من كورنث ، جاء ليعيش فى تاركوينای حوالى عام ٦٦٥ ق.م ، وتزوج بامرأة تسكانية(٣٨) ثم هاجر ابنه لوسليوس تاركوينيوس Lucius Tarquinius إلى رومة وارتفعت مكانته فيها ، ولما مات أنكس اغتصب العرش أو رفعه عليه حلفه من الأسر التسكانية فى المدينة ، والاحتمال الثانى أرجح من الأول . فيقول ليفى Livy إنه أول ملك سعى إلى التاج وألقى خطبة يطلب فيها معونة السوقة أى المواطنون الذين لا يستطيعون أن يثبتوا انتسابهم إلى الآباء الذين أسسوا المدينة ؛ وزاد سلطان الملكية على الأشراف فى عهد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus ، كما زاد نفوذ التسكانيين فى شئون رومة السياسية والهندسية والدينية والفنية ؛ وحارب تاركون السبنيين وانتصر عليهم ، وأخضع لاتيوم Latium كلها لسلطانه ، ويقال إنه استخدم موارد رومة ليجمل بها تاركونياى وغيرها من المدن الإترورية ، ولكنه جاء أيضاً بالفنانين التسكانيين واليونان إلى عاصمة ملكه وزينها بالهياكل الفخمة(*) ويلوح أنه كان يمثل سلطان الأعمال التجارية والمالية المتزايد على سلطان الأشراف ملاك الأراضى الزراعية .

وحكم تركون الأول ثمانية وثلاثين عاماً ثم قتله الأشراف غيلة لأنهم أرادوه

(*) ولعله أيضاً أنشأ فيها المجارى لتنظيفها ، ويعزو إليه المؤرخون الرومان إنشاء الكلوكا مكسيما Cloaca Maxima أو البالوعة الكبرى ، ولكن بعض العلماء يبقون هذا الفضل إلى القرن الثانى قبل الميلاد(٤٠) .

أن يحدوا من سلطان الملكية ويفرضوا عليها سلطان الدين ، ولكن تناكويل Tanquil أرملة تاركون تولت الأمر بنفسها ، واستطاعت أن ترفع ابنها سرڤيوس تليوس Servius Tallius على العرش . ويقول شيشرون إن سرڤيوس هذا هو أول ملك رومانى استطاع « أن يتولى الملك دون أن يختاره الشعب »(٤١) أى أن تختاره الأسر الكبيرة . وحكم هذا الملك البلاد حكماً صالحاً ، وأنشأ حول روما خندقاً وسوراً ليحميها من الغارات ، ولكن كبار الملاك لم يرضوا عن حكمه ودبروا المؤامرات لخلعه ، فقابل هذا بأن تحالف مع الأثرياء من العامة (Plebs) وأعاد تنظيم الجيش والناخبين ليقوى بذلك مركزه ، فبدأ بإحصاء السكان والأملاك ، وقسم الأهلين طبقات على أساس ثروتهم لا على أساس مولدهم ، فترك بذلك الأشراف القديمة محتفظة بكيانها ، ولكنه رفع تجاهها طبقة من الإكويتى equites ومعناها الفرسان — أى الرجال الذين كان فى مقدور كل منهم أنه يعد له جواداً وسلاحاً ينخرط بهما فى سلك فرقة الفرسان فى الجيش(*) . وتبين من الإحصاء أن هناك ٨٠,٠٠٠ شخص يستطيعون حمل السلاح . وإذا قدرنا أن أسرة كل جندى من هؤلاء الجنود تتألف منه ومن زوجه وولد واحد ، وأن لكل أسرة من أربع أسر عبداً رقيقاً ، فإنا لا نكون مخطئين إذا قدرنا سكان روما والبلاد المحيطة بها الخاضعة لسلطانها حوالى عام ٥٦٠ ق.م بنحو ٢٦٠,٠٠٠ نسمة . وقسم سرڤيوس هؤلاء السكان إلى خمس وثلاثين قبيلة جديدة ، ورتبها حسب مسكنها لا حسب طبقتها أو ما بينها من صلات القرابة ، وفعل بذلك ما فعله كليستنيز Cleisthenes فى أنيكا Attica بعد جيل من الوقت ، فأضعف ما كان للأشراف — أى الطبقة التى كانت تضع نفسها بفضل مولدها فوق سائر الطبقات — من تماسك سياسى وقوة انتخابية . ولما قام تاركون آخر

(*) وهذا اللفظ بمعناه القديم ذو صلة بكلمة Knight (فارس) الإنجليزية ، ولكن سرعان ما فقد لفظ equites معناها الأول وأصبح معناه الطبقة الوسطى العليا أو طبقة رجال الأعمال .

هو حفيد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus واتهم سرفيوس Servius بأنه يحكم حكما غير شرعى ، استفتى سرڤيوس الشعب فنال « ثقته الاجتماعية » كما يقول ليڤى Livy(٤٢)، غير أن تاركوين لم تقنعه نتيجة هذا الاستفتاء فعمل على اغتيال سرڤيوس ، ونادى بنفسه ملكا على رومة(*).

وأصبحت الملكية فى عهد تاركوينيوس سوبربس Tarquinius Superbus « المتكبر » مطلقة السلطان ، كما أصبح للتسكانيين النفوذ الأعلى فى البلاد ؛ ولكن الأشراف كانوا من قبل يرون أن الملك Rex إن هو إلا السلطة التى يكل إليها مجلس الشيوخ Senate تنفيذ أحكامه ، وأنه الكاهن الأكبر للدين القومى ، ولذلك لم يستطيعوا أن يصبروا طويلا على سلطانه غير المحدود . ومن أجل هذا قتلوا تاركوينيوس برسكس ولم يحاولوا الدفاع عن سرڤيوس . ولكن هذا الملك الجديد كان شراً من الملك الأول ، فقد أحاط نفسه بحرس خاص وحقر الأحرار بأن فرض عليهم السخرة شهوراً طوالا ، وأمر بصلب المواطنين فى السوق العامة ، وقتل عدداً كبيراً من زعماء الطبقات العليا فى البلاد ، وحكم حكماً وحشياً ساخراً أغضب جميع أصحاب الرأى فيها(**)(٤٤) . وظن هذا الملك أن النصر فى ميدان القتال يكسبه حب الشعب ورضاه ، فهاجم الروتليين Rutili والڤلشيين Volscians . وبينا كان هو مع الجيش فى الميدان اجتمع مجلس الشيوخ وأعلن خلعه (٥٠٨ ق.م) ، وكان ذلك انقلاباً خطيراً فى تاريخ رومة .

(*) قل أن يوجد من العلماء من يميل إلى الأخذ بأقوال إلتوربيس Eltor Pais المسرفة فى التشكك ، والتى تأبى تصديق كل ما يروى من تاريخ رومة قبل عام ٤٤٣ ق . م لأنه حسب زعم هذا المؤرخ مجرد أساطير . وهو يعتقد أن تاركوين الأول والثانى علمان على شخص واحد لم يوجد قط (٤٣) . ويرى بعضهم أن الرواية المأثورة عن تاريخ رومة بعد رميولوس يمكن قبولها مع تعديل فى بعض أجزائها ، وأن قبوله هذا « يفسر الظاهرة » تفسيراً خيراً مما يفسره أى افتراض آخر .

(**) أكبر الظن أن ما يروى من تاريخ آل تاركوين قد سوأته الدعاية التسكانية ودعاوى الأرستقراطية الرومانية . ذلك أن معظم تاريخ رومة الأول قد كتبه رجال يمثلون طبقة الأشراف أو يعجبون بهذه الطبقة ، كما كان كتاب تاريخ الأباطرة فيما بعد من أشياع مجلس الشيوخ أمثال تاستس Tacitus .

الفصل السّادس

مولد الجمهورية

وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدباً ، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام . انظر مثلا إلى ما يقوله ليفي وهو أن سكستس تاركوين Sextus Tarquin ابن الملك كان فى معسكر أبيه فى إحدى الليالى يناقش لوسيوس تاركوينيوس كلاتنس Lucius Tarquiniu Collatinus أحد أقربائه فى فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى ، فعرض لميـــه كلاتنس أن ينطلقا على ظهرى جواديهما إلى رومة ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما فى أواخر الليل . فوجدا زوجة سكتس فى وليمة مع بعض صاحباتها ، أما لكريشيا Lucrctia زوجة كلاتنس فكانت تغزل الصوف لتنسج منـــه ثياباً لزوجها . وتاقت نفس سكتس ليجرب وفاء لكريشيا ويستمتع بحبها ، فما كان منه إلا أن عاد فى السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته . وأرسلت لكريشيا تستدعى أباها وزوجها ، وأخبرتهما بما حدث لها ، ثم انتحرت بطعنة خنجر . وعلى أثر ذلك أهاب لوسيوس چونيوس بروتس Lucius Junius Brutus أحد أصدقاء كلاتنس جميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين كلهم من رومة . وكان هو نفسه ابن أخى الملك ، ولكن تاركوين كان قد قتل أباه وأخاه ، وتظاهر هو بالجنون حتى يبقى تاركوين على حياته فيثأر لمقتل أبيه وأخيه ، ولذلك سمى بروتس Brutus أى الأبله . فلما وقعت هذه الحادثة ركب مع كلاتنس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ ، وما زال به حتى أقنعه بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من رومة . وكان الملك فى أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة . وعلم بروتس بهذا فسار إلى الجيش على ظهر جواده وقص عليه مرة أخرى

قصة لكريشيا وكسب بذلك معونته وتأييده . وفر تاركوين إلى بلاد إترووريا وطلب إلى أهلها أن يعيدوه إلى عرشه (١٥)(*) .

ودعيت فى رومة وقتئذ جمعية من أهلها الجنود فاختارت بدل الملوك الذين كانوا يختارون مدى الحياة قنصلين (**) متعادلين فى السلطان، كلاهما رقيب على الآخر ومنافس له، يحكمان مدة عام واحد . وتقول الرواية إن القنصلين الأولين كانا بروتس وكلاتنس ولكن ثانيهما استقال من منصبه فاختير بدله پبليوس ڤالريوس **Publius Valirius** الذى لقب فيما بعد پبلكولا **Publicola** — أى « صديق الشعب » — ، لأنه تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين ظلت من القواعد الأساسية فى دستور رومة وهى : أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله من غير محاكمة ؛ وكل من يحاول أن يتولى منصباً عاماً من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام ؛ وكل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية . وڤالريوس هو الذى سن السنة التى كانت تحتم على القنصل إذا أراد أن يدخل الجمعية أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويخفضها إشارة إلى سيادة الشعب وإلى أن عقوبة الإعدام فى وقت السلم من حق الشعب وحده .

وأهم نتائج هذه الثورة اثنتان : أولاهما أنها حررت رومة من سلطان التسكانيين ، والثانية أنها استبدلت بحكم الملوك حكم الأشراف الذين ظلوا يحكمونها إلى عهد قيصر . أما الفقراء من المواطنين فلم تنصلح أحوالهم بعد الثورة بل ساءت عما كانت عليه ، فقد طلب إليهم أن ينزلوا عن الأراضى التى وهبها لهم سرڤيوس

(*) يرى معظم العلماء من أيام نيبهر **Niebuhr** أن قصة لكريشيا من خلق الخيال وشيكسبير . ولسنا نعرف ما فى هذه القصة من حقيقة وما فيها من خيال الشعراء . ويرى البعض أن بروتس نفسه شخصية خرافية ، ولكن أكبر الظن أن الذين يقولون بهذا يسرفون فى تشككهم .

(**) أو قائدين يلقب كل منهما بريتور **Praetor** — كما تقول رواية أخرى .

وخسروا ذلك القسط الضئيل من الحماية من سلطان الأشراف وهو الذى كان لهم فى عهـــد الملكية(٤٧) . وقال الظافرون إن الثورة كانت نصراً موزراً للحرية ، ولكن الحرية فى لغة الأقوياء لا يقصد بها فى بعض الأحيان إلا التحرر من القيود التى تحول دون استغلال الضعفاء .

وكان إخراج آل تاركوين من رومة ، مضافاً إلى هزيمة التسكانيين على يد المستعمرين اليونان فى كومية Cumae عام ٥٢٤ تذيراً بزوال زعامة التسكانيين من وسط إيطاليا . ومن أجل هذا فإنه لما لجأ إليهم تاركوين ، استجاب لدعوته لارس پورسنا Lars Porsena ، أكبر الحكام فى كلوزيوم Clusium فجمع جيشاً كبيراً من مدن إتروريا المتحدة وزحف به على رومة . ودبرت فى رومة نفسها وفى الوقت نفسه مؤامرة ترمى إلى إعادة آل تاركوين إلى عرشها . وقبض على المتآمرين ، وكان من بينهم ابنا بروتس ، وضرب هذا القنصل لكل من جاء بعده من الرومان أحسن الأمثلة فى الجلد والخضوع لحكم القانون ، إذ شـــهد بعينه ولديه يجلدان ثم يضرب رأساهما وهو صامت لا ينبس ببنت شفة — أو لعل هذه قصـــة تروى وليست حقيقة واقعة . ودمر الرومان الجسر العام على نهر التيبر قبل أن يصل إليهم پورسنا ؛ وقد خلد هوراشيس ككليز Horatius Cocles اسمه فى الأغانى اللاتينية والإنجليزية بدفاعه عن رأس هذا الجسر(*) . ولكن رومة استسلمت لپورسنا(٤٨) . على الرغم من هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير التى أراد بها المهزومون أن يكللوا هاماتهم بالمجد . ونزلت عن بعض أملاكها إلى ڤياى veii والمدن للاتينية التى كان ملوك رومة قد انتهبوها(٤٩) . وأظهر پورسنا للمدينة المغلوبة بعض المجاملة إذ لم يطلب إعادة تاركوين إلى عرشها . وكان الأشراف فى إتروريا قد طردوا منها أيضاً الملوك وظلت رومة بعد هذه الاضطرابات ضعيفة

(*) انظر قصيدة لورد مكولى فى مجموعة قصائده المسماة **Lays of Ancieur Romeeut**
(المترجم)

مدى جيل من الزمان ، ولكن ما خلفته الثورة من نتائج ظل باقياً دائم الأثر .

وقضت هذه الثورة على قوة التسكانيين ، ولكن آثار النفوذ التسكانى ودلائله ظلت باقية فى الحضارة الرومالية إلى آخر أيامها . ولعل أقل هـذا النفوذ أثراً هو ما كان فى اللغة اللاتينية ؛ بيد أن الأرقام الرومانية هى فى أغلب الظن أرقام تسكانية(٥٠) ، ولعل لفظ رومة نفسه مشتق من اللفظ التسكانى رومون Rumon ومعناه نهر(٥١) . وكان الرومان يعتقدون أنهم أخذوا عن إتروريا الاحتفالات التى كانت تقام عند عودة قائد رومانى منتصر ، والأثواب الموشاة بإطار أرجوانى ، والمقعد العاجى (الشبيه بمقاعد العربات) الذى يجلس عليه الحكام ، والعصى والفؤوس التى كان يحملها أمام كل قنصل اثنا عشر ضابطا ، والتى كان يرمز بها إلى حقه فى ضرب الناس وقتلهم(٥٢) . وكانت عملة رومة تزدان بمقدم سفينة قبل أن يكون لرومة سفن بزمن طويل — وكانت هذه الصورة ترسم على العملة التسكانية رمزاً لنشاطها التجارى وسـلطانها البحرى . وكان من عادة الأشراف الرومان من القرن السابع إلى الرابع قبل الميلاد أن يرسلوا أبناءهم إلى المدن التسكانية ليتلقوا فيها التعـليم العالى ، وكان من بين ما يتلقونه فيها من العلوم الهندسية والمساحة والفنون المعمارية(٥٥). وكانت الملابس الرومانية مأخوذة عن الملابس التسكانية أو لعل هذه وتلك مأخوذتان عن أصل واحد .

وجاء الممثلون الأولون إلى رومة كما جاء إليها اسمهم historiones من إتروريا . وإذا جاز لنا أن نصدق ليڤى فإن تاركوينيوس پرسكس هو

(*) وقد وجدت فى أحد القبور التسكانية فى فتيولونيا Vetulonea بلطة من حديد ذات رأسين ، وبد محاطة بثمانية قضبان حديدية (٥٣) . وكانت البلطة ذات الرأسين تتخذ رمزاً للسلطان من عهد لا يقل فى القدم عن عهد الحضارة المينوية فى كريت . وكان الرومان يطلقون على البلطات والقضبان المحيطة بها اسم الحزم — (الفاشات) . أما عدد الضباط الاثنى عشر الذين يحملون هذه البلطة والذين يسمون بالرومانية لكتورين Lictors (من Ligare ومعناها يربط) فيرجع إلى الاثنى عشر مدينة التى كانت يضمها الاتحاد التسكانى ، وكانت كل واحدة منها ترسل ضابطاً يصحب الرئيس لهذا الاتحاد(٥٤) .

الذى بنى أول ساحة كبرى Circus Maximus ، واستورد خيول السباق والمصارعين للألعاب الرومانية من إتروريا ؛ والتسكانيون هم الذين أدخلوا فى رومة المصارعات الوحشية ، ولكنهم هم الذين وضعوا النساء فيها فى منزلة لم تكن لهن فى بلاد اليونان . وقد شاد المهندسون التسكانيون أسوار رومة ومصاريف الفضلات من بيوتها ، وهم الذين استحالت على أيديهم من مناقع وخمة إلى حاضرة محمية متمدينة . وأخذت رومة عن إتروريا معظم مراسمها الدينية ؛ كما أخذت عنها عادات زجر الطير والعرافة والإنباء بالغيب ؛ ولقد ظلت وظيفة المتنبئ بالغيب جزءاً مقرراً فى كل جيش رومانى إلى أيام الإمبراطور يوليان Julian (أى إلى عام ٣٦٣ ب . م) وكان الاعتقاد السائد أن رميولوس Romulus قد خطط حدود رومة حسب المراسم والطقوس التسكانية . وعن إتروريا أخذ الرومان حفلات عرسهم وما فيها من رموز إلى عادة الأسر القديمة وحفلات جنائزهم كما أخذوا عنها موسيقاهم وآلات طربهم(٥٦) . وكان معظم فنانى رومة من التسكانيين ، كما كان الشارع الرومانى الذى يعمل فيه الفنانون يسمى Vicus Tuscus (البيوت التسكانية) ، ولعل الفنانين أنفسهم قد تسربوا إلى رومة عن طريق لاتيوم من إغريق كمپانيا Campania . وكان فن النحت فى رومة متأثراً أعمق الأثر بأقنعة الموتى التى كانت تغطى بها صور الأسر — وهى عادة أخذت من إتروريا .

وزين المثالون التسكانيون هياكل رومة وقصورها بالتماثيل البرنزية وبالصور المجسمة على الآجر والمحفورة فيه . وخلف مهندسو البناء التسكانيون فى رومة « طرازاً تسكانياً » لا يزال حتى اليوم باقياً فى كنيسة القديس بطرس . ولعل ملوك رومة التسكانيين هم الذين شادوا فيها أولى العمارات الكبيرة وحولوها من طائفة من الأكواخ الطينية أو العشش الخشبية إلى مدينة مشيدة من الخشب والآجر والحجارة . ولم تشهد رومة مثل ما شهدته من المبانى فى عهد التسكانيين إلا فى عهد قيصر .

ولكن ينبغى لنا ألا نغلو فى هذا الوصف ؛ فمهما يبلغ ما أخـــذته رومة عن جيرانها من الكثرة فقد ظلت فى جميع مظاهر الحياة الأساسية محتفظة بطابعها الخاص ؛ فليس فى التاريخ التسكانى ما يوحى بمميزات الخلق الرومانى ، وهى التأديب الذاتى وما فيه من جد ، ووقار ، والقسوة ، والجرأة ، والوطنية ، والإخلاص ، والصفتان الأخيرتان هما اللتان استطاع بهما الرومان على طول الزمن أن يفتحوا بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأن يحكموها فيما بعد ؛ فلما تحررت رومة من ســيطرة التسكانيين انفسح المجال أمامها لتمثيل تلك المسرحية الفذة مسرحية عظمة الوثنية ثم اضمحلالها فى العالم القديم ؛